المحرر الوجيز
فى تفسير الكتاب العزيز
لابن عطية

بقلم

أ.د/ محمود بسيونى فودة

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية

التعريف بمؤلف هذا التفسير ومكانته العلمية :

هو القاضى أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن غالب بن عبدالرؤوف بن تمام ابن عبدالله بن تمام بن عطية المحاربى (الداخل) هذا هو النسب الصحيح ، حيث إن ابن عطية قد ذكره بنفسه فى فهرسته. (١)

وقد أخطأ بعض أهل التراجم فى نسبه ولكن هذا النسب الذى ذكرناه هو الصحيح لأنه يعود إلى ابن عطية نفسه ، وأسرة ابن عطية التى ينتسب إليها أسرة كريمة جمعت بين العلم وعراقة الأصل ، فاشتهر كثير من أفرادها بالفقه والحديث والأدب ووالد ابن عطية كان عالماً معروفاً بفضله وكذلك جده وقد حدثتنا كتب التراجم عن طائفة من علماء بنى عطية وكل ذلك يدل على أن ابن عطية كان من بيت علم تفتحت عيناه على قدوة طيبة تتمثل فى أبيه وفى أسرته بوجه عام.

أما ابن عطية فقد وصفه الفتح بن خاقان وهو أحد الأدباء المعاصرين لابن عطية وصفة بالجد والنشاط وأنه لم يركن قط إلى الكسل والخمول اتكالاً على ماكان لأبائه الأقدمين من مجد مؤثل وجاه عريض ، كما يصفه المقرى نقلاً عن الفتح بن خاقان، كذلك بأنه بلغ فى صغره إلى ما بلغ إليه الكبار فى كهولتهم من عظيم المجد ورفيع الشرف وجليل العلم حيث يقول عنه أنه سما إلى رتب الكهول صغيراً وشد كتيبة ذهنه على العلوم صغيراً فسباها معنى وفضلاً وحواها فرعاً وأصلاً (٢).

١- فهرست ابن عطية ص ٢.

٢- نفح الطيب للمقرى ٢/٥٢٨.

ويتحدث عنه السيوطى فى كتابه طبقات المفسرين فيقول : كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير بارع الأدب بصيراً بلسان العرب واسع المعرفة له يد فى الإنشاء والنظم والنثر وكان يتوقد ذكاء [1].

وقد تتلمذ ابن عطية على يد كثير من علماء عصره وخاصة على أبيه غالب بن عطية الامام الحافظ والعالم الجليل وقد روى هو عن أبيه وأبى على الغسانى والصفدى وأخذ عن شيوخه بطرق أربعة وهى أهم طرق الرواية عند المحدثين فأخذ عنهم بالسماع والقراءة والمناولة والأجازة.

فالنسبة لشيخه على الغسانى فقد أخذ ابن عطية الرواية عنه فى سبيل التدريج سماعاً تم قراءة ثم مناولة ثم اجازة ففى ذى القعدة سنة ٤٩٥ هـ سمع عبدالحق بن عطية منه الفاظاً من اللغة وأبياتاً من الشعر قيدها عنه وبعد شهرين ونصف من ذلك وبالتحديد فى أوائل سنة ٤٩٦ هـ قرأ عبدالحق بن عطية عليه الموطأ ومصنف أبى داود والملخص لأبى الحسن القابس والنقص لابن عبدالبر وتقييد المهمل وتميز المشكل الذى ألفه أبو على الغسانى على الصحيحين ثم ناوله شيخه فى نفس هذا التاريخ على طريقة المحدثين ثلاثة عشر كتاباً منها صحيح البخارى وصحيح مسلم ومسند النسائى وسيرة الرسول ﷺ لابن اسحاق وكتاب الامالى لأبى على البغدادى ثم بعد ذلك اجاز له أبو على الغسانى جميع ما رواه عند شيوخه[2].

كما روى عن ابن عطية أبو بكر بن أبى حمزة وأبو القاسم بن حبيش وأبو جعفر بن مضاء وغيرهم وقد قام ابن عطية برحلات فى سبيل العلم فارتحل إلى قرطبة ثم إلى اشبيلية ثم إلى بلنية كما ارتحل إلى جيان وكل ذلك حدث بعد أن أتصل باعظم علماء الأندلس فى عصره.

١- طبقات المفسرين ص ٦١.

٢- أنظر فهرست ابن عطية ص ١٣ - ١٤ مع بعض الاختصار والتصرف.

وله مؤلفات عدة فى شتى فنون الإسلام وأعظمها قدراً كتابه المحرر الوجيز فى التفسير والذى نحن بصدده.

منهج ابن عطية فى تفسيره :

عاش ابن عطية فى عصر يعد بحق العصر الذهبى فى التفسير ففى هذا العصر وهو القرن السادس الهجرى ظهر فى عالم التفسير علماء كل منهم ترك مدرسة فى التفسير تتلمذ عليها من اتوا بعدهم فقد ظهر فيه الزمخشرى وتفسيره العظيم الكشاف ، وظهر فيه البغوى وتفسيره معالم التنزيل ، وظهر فيه ابن المعربى وتفسيره أحكام القرآن ، وظهر فيه الطبرسى وتفسيره مجمع البيان ، وظهر فيه الامام الفخر الرازى وتفسيره مفاتيح الغيب ، وظهر فيه هذا المفسر العظيم ابن عطية وتفسيره المحرر الوجيز.

ولعل من أعظم هذه المؤلفات تفسير ابن عطية فقد فاق كثير ممن سبقوه وممن عاصروه فى هذا المضمار وقد وازن ابو حيان فى تفسيره بين تفسير ابن عطية وتفسير الكشاف فقال : وكتاب ابن عطية أثقل وأجمع وأخلص وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص. (١)

ويقول عنه ابن تيمية فى فتاويه وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد عن البدع وأن اشتمل على بعضها بل هو خير منه بكثير بل لعله أرجح هذه التفاسير (٢).

ثم نجده يعقد مقارنة بينه وبين غيره من المفسرين فيقول : وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة وللجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى ولو ذكر كلام السلف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهة لكان أحسن وأجمل

١- البحر المحيط ١/١٠.

٢- فتاوى ابن تيمية ٢/١٩٤.

فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ثم أنه يدع ما ينقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة[1].

ومما يؤسف له أن هذا التفسير مع مكانته العلمية واعتراف الكل بفضله إلا أنه بالنسبة لعالم الطباعة لم يحظ بعناية الناشرين كما هو الحال بالنسبة لتفاسير عصره فقد ظل تفسيره إلى عهد قريب ماثلاً فى أقسام المخطوطات العربية بمكتبات العالم وهناك أجزاء منه موجودة بدار الكتب المصرية إلا أن أحد الباحثين قام من عهد قريب بالقاء الضوء على هذا التفسير فكتب فيه عن منهجه بحثاً مطولاً طبع عن طريق مجمع البحوث الإسلامية [2].

كما أن هناك إتجاهاً إلى إخراج هذا الكتاب إلى عالم المطبوعات بعد تحقيقه والتعليق عليه ونرجو إلى أن يتم هذا العمل فى وقت قريب إن شاء الله.

مصادر ابن عطية فى تفسيره :

تأثر ابن عطية فى تفسير بعلماء عصره كما رجع إلى مصادر عدة ومن أهم هذه المصادر التى رجع إليها ما يتعلق بكتب التفسير وكتب القراءات وكتب الحديث بالإضافة إلى كتب اللغة والنحو والفقه وكتب التوحيد وكتب التاريخ وفيما يتعلق بكتب التفسير التى تأثر بها وأفاد منها أعظم إفادة التفسير العظيم لأبى جعفر بن جرير الطبرى وهو (جامع البيان فى تفسير القرآن) فالذى يقرأ فى تفسير ابن عطية يلاحظ أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على هذا التفسير واستقى منه كثيراً ، ولكن ابن عطية اختلف عن الطبرى فيما يتعلق بالاسانيد

١- مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٣.

٢- والباحث هو الدكتور عبدالوهاب فايد وهو أستاذ وعالم جليل من علماء الأزهر.

فقد حذف ابن عطية الأسانيد التى ذكرها الطبرى فى تفسيره وكان يهتم بها. وابن عطية فى تفسيره وإن كان قد تأثر بالطبرى إلا أنه فى بعض الأحيان يخالفه الرأى ، وهذا مما يدل على شخصية ابن عطية وعلى أنه لم يكن مجرد ناقل لما جاء فى تفسير الطبرى . فقد كانت له وقفات تدل على شخصيته العلمية : فمثلاً فى مجال المناقشة لاقوال الطبرى وأرائه فى التفسير نراه عند تفسير قوله تعالى (وإذا قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) (١).

هنا نلاحظ أن ابن عطية لم يرتضى ما رجحه الطبرى أن إبراهيم عليه السلام قد صدر منه هذا القول على جهة الشك فى قدرة الله تعالى وهنا يرد ابن عطية على ما رجحه الطبرى ويناقشه مناقشة مفصلة فيقول ابن عطية (واختلف الناس) لم صدرت هذه المقالة عن إبراهيم عليه السلام فقال الجمهور أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً فى إحياء الله الموتى قط. وإنما طلب المعاينة. وترجم الطبرى فى تفسيره فقال : وقال اخرون : سأل ذلك ربه لأنه شك فى قدرة الله عزل وجل على إحياء الموتى وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال : ما فى القرآن أيه أرجى عندى منها وذكر عن عطاء بن أبى رباح أنه قال : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل فى قلوب الناس فقال رب ارنى كيف تحى الموتى وذكر حديث أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال (نحن أحق بالشك من إبراهيم) الحديث ثم رجح الطبرى هذا القول الذى يجرى مع ظاهر الحديث ، قال : إن إبراهيم لما رأى الجيفة يأكل منها الحيتان ودواب البحر القى الشيطان فى نفسه فقال : متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاء.

ثم يقول ابن عطية فى مناقشة الطبرى وما ترجم به الطبرى عندى مردود وما ادخل تحت الترجمة متأول. فاما قول ابن عباس (هى أرجى أيه) فمن حيث فيها

١- سورة البقرة آية (٢٦٠).

الادلال على الله تعالى وسؤال الأحياء في الدنيا وليست مظنه ذلك. ويجوز أن يؤول (هى ارجى أيه) لقوله (أو لم تؤمن) أى أن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقير وبحث. وأما قول عطاء بن أبى رباح (دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمعناه من حب المعاينة ذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به ولهذا قال النبى ﷺ (ليس الخبر كالمعاينة).

وأما قول النبى ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) فمعناه أنه لو شك لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فابراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك.

فالحديث مبنى على نفى الشك من إبراهيم . والذى روى فيه عن النبى عليه السلام أنه قال (ذلك محض الإيمان) إنما هو فى الخواطر الجارية التى لا تثبت.

وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر وذلك هو المنفى عن الخليل عليه السلام وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم أعلم به يدلك على ذلك قوله (ربى الذى يحيى ويميت) فالشك يبعد من ثبت قدمه فى الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة ؟ والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة إجماعاً.

وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآيه لم تعط شكا وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو عن حال شئ موجود متقرر الوجود الموجود عند السائل والمسئول نحو قولك كيف علم زيد وكيف نسج الثوب ونحو ذلك ومتى قلت وكيف ثوبك وكيف زيد فإنما السؤال عن حال من أحواله) (١).

هذا جانب مناقشة ابن عطية لابن جرير الطبرى وأعتقد أن الحق بجانب ابن عطية فما رجحه ابن عطية يتفق ومكانة رسل الله وما نزهوا عنه فالشيطان لا سبيل له عليهم ولا يتأتى أن يقع منهم أدنى شك. ولعلك تلاحظ هذه القدرات

١- تفسير ابن عطية سورة البقرة آية (٢٦٠).

الفائقة لابن عطية وما أتاه الله من عقل ذكى وقاد فى هذه المناقشة التى اقامها مع ابن جرير الطبرى.

هذا وقد رجع ابن عطية إلى تفاسير أخرى منها تفسير أبى بكر النقاش وتفسير أبى العباس المهداوى وتفسير مكى ابن أبى طالب.

أما بالنسبة للقراءات ، فقد رجع ابن عطية كثيراً إلى كتاب الحجة لأبى على الفارسى وكتاب المحتسب لأبى الفتح بن جنى ومؤلفات أبى عمرو الدانى فى القراءات.

أما بالنسبة للسنة فقد اعتمد على مصنفات الحديث المختلفة وخاصة الجامع الصحيح للإمام البخارى والمسند الصحيح للإمام مسلم وكتاب السنن لأبى داود وغير ذلك من كتب الصحاح ، كما ذكر فى تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة مما يدل على أنه رجع إلى مصادر أخرى.

قضية المأثور والرأى فى تفسير ابن عطية

اعتمد ابن عطية اعتماداً أساسياً على التفسير بالمأثور فقد رجع كثيراً إلى المروى عن رسول الله ﷺ وذكر كثيراً من أقوال الصحابه وأقوال التابعين وتابيعيهم.

وعندما نقرأ فى تفسيره نجد أنه اختصر الاسانيد فلم يتقيد بذكرها كما فعل ابن جرير الطبرى ولعله قصد من ذلك أن يكون تفسيره وجيزاً كما سماه ويجانب التفسير بالمأثور لم يهمل ابن عطية اللون الأخر من التفسير وهو التفسير بالرأى بل سار جنباً إلى جنب ولكن عد مفسراً بالمأثور لأنه ركز أولاً عليه وجعل التفسير بالرأى تبعاً للمأثور وهو فى تفسيره بالرأى يرى أنه لا يتأتى أن يكون التفسير بالرأى مقبولاً إذا اعتمد على الرأى المجرد دون نظر فيما قال العلماء أو

اقتضته قوانين العلوم كالنحو والأصول وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويين لغته والنحاه نحوه والفقهاء معانيه [1].

هذا وفيما يتعلق بقضية المأثور عند ابن عطية فقد نقل كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ إلا أنه يلاحظ عليه أنه لم يكن دقيقاً بالنسبة لذكر الصحيح من الأحاديث وغير الصحيح فقد أخذ عليه العلماء أنه في بعض الأحيان يذكر أحاديث فى غاية الضعف فمثلاً يقول فى تفسير قوله تعالى (لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذ سنه ولا نوم) [2]، يقول : روى أبوهريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى على المنبر فقال : وقع فى نفس موسى هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكا فأرقه ثلاثاً. ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان . ثم يستيقظ فيحبس أحداهما عن الأخرى . حتى نام نومه فاصطفقت يداه : فانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لما استمسك السماء والأرض [3].

وقد تحدث العلماء فى هذا الحديث ورأى كثير منهم أنه منكرا وضعيف فهذا هو الحافظ الذهبى يصف هذا الحديث فى ميزان الاعتدال فيقول : " أمية بن شبل يمنى له حديث منكر رواه عن الحكم بن ابان عن أبى هريرة مرفوعاً قال وقع فى نفس موسى هل ينام الله ... الحديث " [4].

هذا وقد ذكر أيضاً كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين فمثلاً يقول فى تفسير قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) هنا يوضح ابن عطية معنى الكفر فى الآية فيقول

١- مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٦٣.

٢- سورة البقرة آية (٢٥٥).

٣- تفسير ابن عطية سورة البقرة (٢٥٥).

٤- ميزان الاعتدال ١/٢٧٦.

وقوله تعالى (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) قال ابن عباس المعنى من زعم أن الحج ليس بفرض وقال مثله الضحاك وعطاء وعمران القطان ومجاهد والحسن ، وروى عن النبى ﷺ أنه قرأ الآية فقال رجل من هذيل : يارسول الله من تركه كفر ؟ فقال له النبى ﷺ من تركه لا يخاف عقوبته ، ومن حجة لا يرجو ثوابه فهو ذلك وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضاً. وهذا والذى قبله يرجع إلى كفر الجحد والخروج من الملة. وقال ابن عمر وجماعة من العلماء من كفر بالله واليوم الآخر. قال القاضى أبو محمد وهذا قريب من الأول . وقال ابن زيد معنى الآية من كفر بهذه الآيات التى فى البيت. وقال السدى وجماعة من أهل العلم معنى الآية ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحج قال السدى من كان بهذه الحال فهو كافر [1].

وبجانب هذا كما قلنا أهتم ابن عطية أيضاً بالتفسير بالرأى كما يرى أن لفظ القرآن يحتمل وجوهاً كثيرة من المعانى ومن هنا وجدناه كثيراً ما يقف عند الأقوال فيرجح بعضها على بعض بتوجيه سديد ، وفى بعض الأحيان يذكر أقوال المفسرين ثم يتركها دون تعقيب عليها ، ولعله يرى أن هذه الأقوال كلها محتملة فى تفسير الآية ، وأحيانا نجده يذكر الأقوال المختلفة ثم يرجعها فى النهاية إلى معنى واحد اشارة منه إلى أن الاختلاف فى هذه الأقوال هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد فمثلاً يقول فى قوله تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب).

فيقول ما نصه " واختلف الناس فى الحكمة فى هذا الوضع فقال السدى الحكمة النبوة ، وقال ابن عباس هى المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه . وقال قتادة الحكمة الفقه فى القرآن وقاله مجاهد . وقال مجاهد أيضا الحكمة الإصابة فى القول والفعل . وقاله ابن زيد وأبوه زيد ابن

١- تفسير ابن عطية سورة آل عمران آية (٩٧).

اسلم : الحكمة العقل فى الدين . وقال مالك الحكمة المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له وروى عن ابن القاسم أنه قال الحكمة التفكر فى أمر الله والاتباع له . وقال أيضا الحكمة طاعة الله والفقه فى الدين والعمل به. وقال الربيع الحكمة الخشية ومنه قول النبى عليه السلام راس كل شئ خشية الله. وقال إبراهيم الحكمة الفهم . وقاله زيد بن أسلم . وقال الحسن الحكمة الورع. وهذه الأقوال كلها ماعدا قول السدى قريب بعضها من بعض لأن الحكمة مصدر من الأحكام وهو الاتفاق فى عمل أو قول ، وكتاب الله حكمة وسنه نبيه حكمة وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التى هى الجنس [1].

هذه صورة موجزة القيناها على هذا العالم العظيم ابن عطية صاحب تفسير الوجيز ولعلنا جميعاً نتوق إلى يوم نجد فيه هذا التفسير قد أخذ مكانه اللائق به بين كتب التفاسير الأخرى فى مكتبات العالم الإسلامى كله فهو تفسير له سماته ومميزاته التى أخذ منها كثير من العلماء الذين آتوا بعد ابن عطية وخير شاهد على هذا هو تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى فالقرطبى رحمه الله كثيراً ما أخذ من هذا التفسير وتأثر به ، وكذلك فعل كثير من المفسرين الذين علموا قدر هذا التفسير العظيم.

أستاذ دكتور

محمود بسيونى فودة

١- تفسير ابن عطية سورة آل عمران (٩٧).